

التحرير والتنوير

ومعنى (لا يرتد إليهم) لا يرجع إليهم أي لا يعود إلى معتاده أي لا يستطيعون تحويله . فهو كناية عن هول ما شاهدوه بحيث يبقون ناظرين إليه لا تطرف أعينهم . وقوله (وأفئدتهم هواء) تشبيه بليغ إذ هي كالهواء في الخلو من الإدراك لشدة الهول . والهواء في كلام العرب : الخلاء . وليس هو المعنى المصطلح عليه في علم الطب وعلم الهيئة .

(وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) عطف على جملة (ولا تحسبن أن غافلا عما يعمل الظالمون) أي تسل عنهم ولا تملل من دعوتهم وأنذرهم .

والناس : يعم جميع البشر . والمقصود : الكافرون بقريظة قوله (يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا) . ولك أن تجعل الناس ناسا معهودين وهم المشركون . و (يوم يأتيهم العذاب) منصوب على أنه مفعول ثان ل (أنذر) وهو مضاف إلى الجملة . وفعل الإنذار يتعدى إلى مفعول ثان على التوسع لتضمينه معنى التحذير كما في الحديث " ما من نبي إلا أنذر قومه الدجال " .

وإتيان العذاب مستعمل في معنى وقوعه مجازا مرسلا .

والعذاب : عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا الذي هدد به المشركون و (الذين ظلموا) : المشركون .

وطلب تأخير العذاب إن كان مرادا به عذاب الآخرة فالتأخير بمعنى تأخير الحساب أي يقول الذين ظلموا : أرجعنا إلى الدنيا لنجيب دعوتك . وهذا كما في قوله تعالى (رب أرجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت) فالتأخير مستعمل في الإعادة إلى الحياة الدنيا مجازا مرسلا بعلاقة الأول . والرسل : جميع الرسل الذين جاءوهم بدعوة الله .

وإن حمل على عذاب الدنيا فالمعنى : أن المشركين يقولون ذلك حين يرون ابتداء العذاب فيهم . فالتأخير على هذا حقيقة . والرسل على هذا المحمل مستعمل في الواحد مجازا

والمراد به محمد A .

والقريب : القليل الزمن . شبه الزمان بالمسافة أي أخرنا مقدار ما نجيب به دعوتك .

(أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال [44] وسكنتم في مساكن الذين ظلموا

أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال [45]) لما ذكر قبل هذه الجملة

طلب الذين ظلموا من ربهم تعين أن الكلام الواقع بعدها يتضمن الجواب عن طلبهم فهو بتقدير

قول محذوف أي يقال لهم . وقد عدل عن الجواب بالإجابة أو الرفض إلى التقرير والتوبيخ لأن ذلك يستلزم رفض ما سألوه .

وافتحت جملة الجواب بواو العطف تنبيها على معطوف عليه مقدر هو رفض ما سألوه حذف إجازا لأن شأن مستحق التوبيخ أن لا يعطى سؤله . فالتقدير : كلا وألم تكونوا أقسمتم... الخ .

والزوال : الانتقال من المكان . وأريد به هنا الزوال من القبور إلى الحساب . وحذف متعلق (زوال) لظهور المراد قال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) .

وجملة (مالكم من زوال) بيان لجملة (أقسمتم) . وليست على تقدير قول محذوف ولذلك لم يراع فيها طريق ضمير المتكلم فلم يقل : ما لنا من زوال بل جاء بضمير الخطاب المناسب لقوله (أو لم تكونوا) .

وهذا القسم قد يكون صادرا من جميع الظالمين حين كانوا في الدنيا لأنهم كانوا يتلقون تعاليم واحدة في الشرك يتلقاها الخلف عن سلفهم .

ويجوز أن يكون ذلك صادرا من معظم هذه الأمم أو بعضها ولكن بقيتهم مضمرون لمعنى هذا القسم .

وكذلك الخطاب في قوله (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) فإنه يعم جميع أمم الشرك عدا الأمة الأولى منهم . وهذا من تخصيص العموم بالعقل إذ لا بد أن تكون الأمة الأولى من أهل الشرك لم تسكن في مساكن مشركين .

والمراد بالسكنى : الحلول ولذلك عدي بحرف الظرفية خلافا لأصل فعله المتعدي بنفسه . وكان العرب يمرون على ديار ثمود في رحلتهم إلى الشام ويحطون الرجال هنالك ويمرون على ديار عاد في رحلتهم إلى اليمن .

وتبين ما فعل الله بهم من العقاب حاصل من مشاهدة آثار العذاب من خسف وفناء استئصال . وضرب الأمثال بأقوال المواعظ على السنة الرسل " عليهم السلام " ووصف الأحوال الخفية . وقد جمع لهم في إقامة الحجة بين دلائل الآثار والمشاهدة ودلائل الموعظة